

دلائل الإعجاز

أَكْثَرُ دَلِيلِ الْجُمْلَةِ قَبْلُهَا وَكَوْنُ " اقْعُدْ " مَعْطُوفًا بِالْوَاوِ عَلَى مَجْمُوعٍ مَا مَضَى وَكَوْنُ جُمْلَةٍ " أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي " مَعْطُوفَةٌ بِالْفَاءِ عَلَى " اقْعُدْ " . فَالَّذِي يَجِيءُ فَلَا يُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْ هَذَا الَّذِي بِهِ كَانَ كَلَامًا وَشَعْرًا لَا يَكُونُ قَدْ أَتَى بِكَلَامٍ ثَانٍ وَعِبَارَةٍ ثَانِيَةٍ بَلْ لَا يَكُونُ قَدْ قَالَ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ شَيْئًا الْبَتَّةَ .

وَجُمْلَةُ الْأَمْرِ أَنَّهُ كَمَا لَا تَكُونُ الْفِرَاضَةُ أَوْ الذَّهَبُ خَاتِمًا أَوْ سِوَارًا أَوْ غَيْرَهُمَا مِنْ أَصْنَافِ الْحُلِيِّ بِأَنْفُسِهِمَا وَلَكِنْ بِمَا يَحْدُثُ فِيهِمَا مِنَ الْمُتَوَرِّثَةِ . كَذَلِكَ لَا تَكُونُ الْكَلَامُ الْمَفْرَدَةُ الَّتِي هِيَ أَسْمَاءٌ وَحُرُوفٌ كَلَامًا وَشَعْرًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَحْدُثَ فِيهَا الذَّطْمُ الَّذِي حَقِيقَتُهُ تَوْخِيٌّ مَعَانِي النُّحُوِّ وَأَحْكَامُهُ . فَإِذَا لَيْسَ لِمَنْ يَتَصَدَّى لِمَا ذَكَرْنَا مِنْ أَنْ يَعْمَدَ إِلَى بَيْتٍ فَيَضَعُ مَكَانَ كُلِّ لَفْظَةٍ مِنْهَا لَفْظَةً فِي مَعْنَاهَا إِلَّا أَنْ يُسْتَدْرَكَ عَقْلُهُ وَيُسْتَخَفَّ وَيُعَدَّ مَعْدَّةً الَّذِي حُكِيَ أَنَّهُ قَالَ : إِنِّي قُلْتُ بَيْتًا هُوَ أَشْعَرُ مِنْ بَيْتِ حَسَّانٍ . قَالَ حَسَّانُ - الْكَامِلُ - :

(يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهْرَرُّ كِلَابُهُمْ ... لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ) .
وَقُلْتُ :

(يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهْرَرُّ كِلَابُهُمْ ... أَيْدَاءٌ وَلَا يَسْأَلُونَ مَنْ ذَا الْمُقْبِلِ) .

فَقِيلَ : هُوَ بَيْتُ حَسَّانٍ وَلَكِنَّكَ قَدْ أَفْسَدْتَهُ ! .

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ إِنَّمَا أُتِيَ الْقَوْمُ مِنْ قِلَاسَةِ نَظَائِرِهِمْ فِي الْكُتُبِ الَّتِي وَضَعَهَا الْعُلَمَاءُ فِي اخْتِلَافِ الْعِبَارَتَيْنِ عَلَى الْمَعْنَى الْوَاحِدِ وَفِي كَلَامِهِمْ فِي أَخْذِ الشَّاعِرِ مِنْ الشَّاعِرِ وَفِي أَنْ يَقُولَ الشَّاعِرَانِ عَلَى الْجُمْلَةِ فِي مَعْنَى وَاحِدٍ وَفِي الْأَشْعَارِ الَّتِي دَوَّ نَوَّهَا فِي هَذَا الْمَعْنَى . وَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا أَخَذُوا أَنْفُسَهُمْ بِالنَّظْرِ فِي تِلْكَ الْكُتُبِ وَتَدَبَّرُوا مَا فِيهَا حَقَّ التَّدَبُّرِ لَكَانَ يَكُونُ ذَلِكَ قَدْ أَيْقَطَهُمْ مِنْ غَفْلَتِهِمْ وَكَشَفَ الْغَطَاءَ عَنْ أَعْيُنِهِمْ .

وَقَدْ أُرِدْتُ أَنْ أَكْتُبَ جُمْلَةً مِنَ الشَّعْرِ الَّذِي أَنْتَ تَرَى الشَّاعِرِينَ فِيهِ قَدْ قَالَ فِي مَعْنَى وَاحِدٍ . وَهُوَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : قِسْمٌ أَنْتَ تَرَى أَحَدَ الشَّاعِرِينَ فِيهِ قَدْ أَتَى بِالْمَعْنَى غُفْلًا سَاجِدًا وَتَرَى الْآخَرَ قَدْ أَخْرَجَهُ فِي صُورَةٍ تَرُوقُ وَتُعْجِبُ . وَقِسْمٌ أَنْتَ تَرَى كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الشَّاعِرِينَ قَدْ مَدَّحَ فِي الْمَعْنَى وَمَوَّزَّ